

سُورَةُ قِيَامِ

رَحَلَةُ مَنْ غَفَلَةَ التُّرَابِ إِلَى يَقْظَةِ اللَّقَاءِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ ق

رِحْلَةٌ مِنْ غَفْلَةٍ التُّرَابِ إِلَى يَقْظَةِ اللِّقَاءِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

قبل أن يكشف الغطاء

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

ليس أبعد الأشياء عن الإنسان ما غاب عن عينه، بل ما حضر أمامه حتى أُلْفِه، فَرَّبَه ولم يعد يراه. والموت من هذا القبيل: يسير إلى جوارنا في كل يوم، وتفتح لنا أبوابه في وجوه الراحلين، ثم نعود إلى أشغالنا كأن النداء كان لغيرنا. والسماء فوقنا آية، والأرض تحتنا آية، وخفقة القلب آية، والكلمة التي تخرج من أفواهنا أثرٌ لا يضيع، غير أن طول الألفة ينسج على البصيرة غطاءً رقيقاً، ثم يغلظ حتى يعيش الإنسان بين البراهين وقلبه بعيد عنها.

ومن هنا تأتي سورة «ق» لا تنزع أماننا خبراً مجهولاً بقدر ما تأتي لتوقظ فينا معرفةً نامت. إنها سورة الكشف: تكشف وهم استبعاد البعث، وتكشف ضلالة الإنسان أمام بناء السماء، وتكشف حياة الأرض بعد موتها، ثم تمضي حتى تكشف السريرة نفسها: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾. وفي لحظة واحدة ينتقل القارئ من اتساع الكون إلى خبيثة نفسه، فيدرك أن الذي أحاط بالسماء علماً لم يغيب عنه خاطر مرّ بقلبه ولم يسمعه أحد.

ولذلك لا تسير السورة في خطّ واحد هادئ، بل تتحرك كما تتحرك اليقظة حين تفاجئ النائم: سؤال عن البعث، ثم سماء، ثم أرض، ثم أمم زالت، ثم قرب إلهي يليق بجلال الله سبحانه من غير تشبيه ولا تكييف، ثم ملائكة تكتب، ثم سكرة موت، ثم نفخة وصيحة وحشر، ثم جنة تزلف ونار تسأل: هل من مزيد؟ وليس هذا الانتقال تفرقاً في المشاهد، بل بناءً محكم يريد أن يحاصر الغفلة من كل جهة، حتى لا يبقى للإنسان مهرب من السؤال الأشد: بأي قلب سأصل؟

وفي قلب السورة يقف الإنسان بين قربين: قرب الله منه بعلمه واحاطته وسلطانه، وقرب الموعد الذي يظنه بعيداً. فإذا أدرك القرب الأول استحمياً أن يجعل خلوته موطناً لما يكره الله، وإذا أدرك القرب الثاني هان عليه كثير مما يفتنه في الدنيا. وما بين القربين تكتب كلماته، وتُحصى خطواته، ويربى قلبه ليكون من أهل الوصف البديع: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

هذه الصفحات لا تريد أن تكون تفسيراً يستعصي أقوال المفسرين، ولا شرحاً لغوياً يطوف بكل وجه من وجوه الآيات؛ وإنما هي صحة تدرية تحاول أن تقف حيث يريد النص للقلب أن يقف، وأن تنتقل مع السورة من المشهد إلى أثره، ومن الدليل إلى ما ينبغي أن

يصنعه في الإنسان. سنقرأ الآيات لا بوصفها أخباراً عن قوم مضوا أو أحداثاً ستأتي فحسب، بل بوصفها مرايا تزي كل واحد منا موضعه من الغفلة والإنابة، ومن الخوف والرجاء، ومن الكلمة التي يقولها ثم ينساها وهي لا تنسى.

ولعل أعظم ما تصنعه سورة «ق» أنها تنقل الآخرة من هامش العمر إلى مركزه. فليس الإيمان بالبعث فكرة نضعها في آخر أبواب العقيدة، وإنما هو ميزان يعيد تقدير كل شيء: ماذا تساوي لذة تنقضي أمام خلود؟ وما وزن مديح الناس أو ذمهم أمام يوم تأتي فيه كل نفس معها سائق وشهيد؟ وماذا يريخ الإنسان إن اتسعت يده في الدنيا وضاق قلبه عن الرجوع إلى الله؟ حين يدخل اليقين بالآخرة إلى تفاصيل اليوم تتغير هيئة الحياة نفسها: يصبح الصمت أحياناً عبادة، والتوبة عودةً من حافة الهلاك، والصبر رؤيةً أبعد من اللحظة، والقرآن نوراً يكشف الغطاء قبل أن يكشف قهراً يوم اللقاء.

وستجد أن السورة تبدأ بالقرآن المجيد وتنتهي بالأمر بالتذكير بالقرآن، كأن الطريق كله موضوع بين يدي هذا الكتاب. وما بين البداية والنهاية نرى الإنسان في صورته الكاملة: مخلوقاً من تراب، محاطاً بالآيات، معلوم السر، مكتوب القول، مقبلاً على الموت، خارجاً من قبره، واقفاً للحساب، ثم منتهاً إلى مصير لا ثالث له. ولذلك فالسؤال الذي ينبغي أن يصحب هذه الرحلة ليس: ماذا قالت سورة «ق» فقط؟ بل: ماذا تريد سورة «ق» أن تغير في طريقة رؤيتي لنفسي، وللعالم، وللزمن، وللقاء الله؟

فلندخل هذه السورة كما يدخل المسافر فجراً أرضاً جديدة: بعين يقظة، وقلب خفيف من الضجيج، وأذن تعرف أن بعض النداءات لا يكفي أن نسمع؛ بل ينبغي أن نغير الطريق. ولنترك للقرآن أن يرفع عن بصيرتنا شيئاً من الغطاء الآن، قبل أن يأتي اليوم الذي لا يبقى فيه غطاء.

ثم سور في القرآن تأخذ بيدك إلى المعنى رويداً رويداً، وشم سور تفتح بابها فإذا أنت واقف فجأة على حافة الآخرة.

وسورة ق من هذا الصنف الثاني.

لا تمهيد طويلاً.

لا مقدمات تمهل الغافل حتى يستعد.

بل حرف واحد:

﴿ق﴾

ثم قسم بالقرآن:

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

وكان السورة تريد منذ اللحظة الأولى أن تنتزع الإنسان من ضجيج الصغیر، وأن تضعه أمام حقيقتين عظيمتين:

عظمة الوحي، وحتمية الرجوع إلى الله.

إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها واسعة كالمصير.

تبدأ بصوت الحرف الغامض، ثم تمضي بنا بين السماء والأرض، وبين القبر والقلب، وبين الملكين اللذين يكتبان، وسكرات الموت، ونفخة الصور، والجنة والحجيم، حتى تنتهي إلى النبي ﷺ وهو مأمور أن يذكر بهذا القرآن من يخاف الوعيد.

وكان السورة كلها دائرة:

تبدأ بالقرآن، وتنتهي بالقرآن.

وبين البدء والختام يقف الإنسان عارياً من أوهامه، يسمع للمرة الأولى حقيقة حياته كاملة.

حين يبدأ الخطاب من مقام العظمة

يحيى الحرف:

﴿ق﴾

منفرداً.

لا يشرحه القرآن هنا.

ولا يكشف لك سره.

فيتركك أمام جلال ما لا تحيط به.

وهذه أول تربية في السورة:

أن ليس كل شيء في الوجود موضوعاً ليُحاصر بعقلك.

ثم أشياء ينبغي أن تقف أمامها لا بعقل الممتلك، بل بقلب العابد.

ثم يأتي:

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

والمجد ليس مجرد الجمال.

المجد سعة الشرف، وعلو المنزلة، وامتلاء الشيء بأسباب العظمة.

فهذا القرآن ليس كلاماً يُعرض على الإنسان كما تُعرض عليه الآراء البشرية؛ يقبل منه ما

يلائم مزاجه ويترك ما لا يوافق عصره.

إنه قرآن مجيد.

ومن هنا يبدأ الخلل كله:

حين يتعامل الإنسان مع الوحي كأنه أحد الأصوات في السوق، لا الصوت الذي ينبغي أن

يعيد ترتيب السوق كلها.

ولذلك ما إن ذكر القرآن حتى ظهر اعتراض المعتضين:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

غريب أمر الإنسان.
لا يعجب من وجوده بعد أن لم يكن.
ولا يعجب من قلب يخفق بغير أمره.
ولا من سماء معلقة فوقه.
ولا من أرض تنبت الطعام من التراب والماء.
لكن حين يقال له:
سُتُبْعَثُ بعد موتك،
يقول:
عجيب!
وكان القرآن يقلب السؤال:
أيهما أعجب حقاً؟
أن يعيدك مَنْ خلقك؟
أم أن توجد أصلاً من العدم؟

المشكلة ليست في الدليل بل في الخيال

يقولون:

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

لاحظ التعبير:

بعيد.

لم يقولوا: مستحيل بدليل.

إنما استبعدوه.

وهنا يكشف القرآن واحدة من أخطر علل العقل البشري:

أن الإنسان قد يخلط بين:

ما يعجز خياله المحدود عن تصوّره

و

ما يظنه بعيداً عن الوقوع.

نحن نقيس قدرة الله على قدرة الإنسان، ثم نستغرب البعث؛ لأننا لو رأينا جسداً تحول إلى

تراب لما استطعنا جمع ذراته.

لكن من قال إن الذي سيجمعها هو الإنسان؟

ولهذا يأتي الرد:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

يا لها من إجابة.

أنتم تقولون:

ضاع الجسد.

والله يقول:

قد علمنا.

الأرض تعرف كيف تأخذ، والله يعلم ما أخذت.

كل خلية تفتتت.

كل عظم صار تراباً.

كل جزء حملته الريح.

كل أثر ابتلعه الأرض.

ليس في ملك الله شيء اسمه: مفقود.

قد يضيع الشيء عن عين الإنسان.

لكنه لا يضيع عن علم الله.

وهذه الآية ليست في البعث وحده.

إنها عزاء للإنسان في كل ما يظنه قد ضاع.

كم من كلمة خير قلّتها ثم نسيّتها.

وكم من دمعة خبأتها عن العالم.

وكم من ظلم وقع عليك ولم يشهده أحد.

وكم من معروف صنعته ثم مضت به الأيام.

أنت تنسى.

لكن عند الله:

﴿كَأَبْ حَفِیْظٌ﴾.

حين تضطرب الحياة لأن مركزها اضطرب

لم تكن أزمته أزمة معلومات.

قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

مرِيج.

مضطرب.

مختلط.

متناقض.

وهذه واحدة من أدق صور القرآن للنفس التي تفقد الحق.

فالإنسان لا يستطيع أن يطرد الحقيقة من حياته ثم يحتفظ بنظام داخلي كامل.

إذا ضاع المركز اضطربت الدائرة.

إذا لم يعرف الإنسان:

من خلقه؟

ولماذا جاء؟

وإلى أين يذهب؟

فلن تنقذه كثرة التفاصيل التي يعرفها.

قد يعرف أسعار الأسواق، وأخبار الدول، وأسرار المهن، وطبائع الناس، ومع ذلك يعيش في:

﴿أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

يعرف كل شيء إلا لماذا يعيش.

يخطط لعشرين عاماً ولا يعرف ما بعد الموت.

يبني مكانه في الأرض، ولم يسأل عن مكانه في الأبدية.
وهكذا يصبح الذكاء نفسه أحياناً أداة أكثر كفاءة في الضياع.

السماء دليلٌ فوق رأس الغافل

بعد جدل البعث لا تدخل السورة في متاهات فلسفية.

تقول لك:

ارفع رأسك.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

فوقهم.

هذه الكهنة وحدها توقظ القلب.

الدليل ليس محتبئاً في مختبر بعيد.

إنه فوقك.

لكن الأشياء من شدة حضورها تصبح أحياناً غائبة عن الوعي.

نحن لا نندهش من السماء لأننا رأيناها آلاف المرات.

ولا نندهش من الشمس لأنها تطلع كل يوم.

ولا من الليل لأنه يأتي كل مساء.

مع أن التكرار لا يجعل المعجزة أقل إعجازاً.

العادة تخدر الدهشة.

والقرآن يعيد إلى العين بكارتها الأولى:

انظر.

كيف بنيناها.

وزيناها.

ثم انظر إلى الأرض:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

وهنا يجيء الوصف:

﴿بَيْحٌ﴾.

القرآن لا يستدل بالقوة وحدها.

يستدل بالجمال أيضاً.

ليس في الكون برهان هندسي فحسب.

فيه وردة.

لون.

رائحة.

شجرة تخرج من أرض داكنة.

وهذا كله:

﴿تَبَصَّرَ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

فالكون يفتح خزائنه لمن يملك قلباً منيباً.

قد يرى اثنان الشجرة نفسها.

أحدهما يرى خشباً وورقاً.

والآخر يرى رسالة.

الأشياء لا نتكلم فقط بما فيها.

بل نتكلم بقدر استعداد القلب لسماعها.

ثم ينزل الماء:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠٠﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

هنا تكتمل الحجة في مشهد نراه ولا نتأمله.

أرض ميتة.

ماء ينزل.

ثم حياة.

ثم يأتي التعقيب:

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

أيها الإنسان، لقد شاهدت البعث كثيراً، لكنك كنت تسميه ربيعاً.

كنت تمر بجوار الأرض اليابسة ثم تراها بعد المطر خضراء، ولم تسمع ما تقوله لك:

إن الذي أخرج الحياة من موتي سيخرجك من قبرك.

كل ربيع مشهدٌ مصغرٌ يقرب إلى الحس معنى البعث.

وكل بذرة تشق التراب خطابٌ إلى من استبعد الخروج من التراب.

المشكلة أن الإنسان يريد معجزة خارقة، بينما هو يعيش داخل معجزات متكررة حتى يلبت دهشته.

ثم تفتح السورة نافذة التاريخ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۖ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۖ
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيَاجٍ ۚ كُلُّ كَذَّابٍ ۖ الرَّسُلَ حَقَّ وَعِيدِ ۖ﴾

أسماء تتوالى.

حضارات.

أمم.

قوة.

قصور.

جيوش.

ثم تختصرها الآية كلها في شيء واحد:

كذبوا.

وهذا هو المنظور القرآني للتاريخ.

قد يكتب البشر عن الحضارات بأحجام جيوشها واقتصادها ومساحة نفوذها.

أما القرآن فيسأل فيسأل سؤالاً أعمق:

ماذا كان موقفها من الحق؟

يمكن لحضارة أن تكون عظيمة في كتب الآثار، وهالكة في ميزان السماء.

والقرآن يحطم وهماً كبيراً:

أن القوة المادية تمنح صاحبها حصانةً من سنن الله.

كم من أمة ظنت أن جدرانها أطول من أن يصل إليها القدر.

ثم أصبحت جدرانها نفسها آثاراً يمر بها السباح.

السؤال الذي يحسم جدل البعث

تأتي الآية:

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الاستفهام يضرب أصل الاعتراض.

هل أعجزنا خلقكم أول مرة؟

إذا كانت البداية قد وقعت، فأين غرابة الإعادة؟

وأنت نفسك برهانك.

كان في هذا العالم زمن لم تكن فيه.

لا اسم.

لا صوت.

لا ذاكرة.

لا وجه.

ثم وُجدت.

فأي الأمرين أشد في تصور العقل البشري:

أن يُعاد موجود؟

أم أن يُنشأ من حيث لم يكن؟

لكن الإنسان لا يحمل في جيبه ذاكرة العدم الذي جاء منه؛ ولذلك ينسى المعجزة

الكبرى:

وجوده نفسه.

انتقالاً مفاجئاً من السماء إلى أعماق النفس

بعد السماء والأرض والحضارات، تقترب الكاميرا القرآنية فجأة.

قريبة جداً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

ليس فقط ما يقول.

بل ما توسوس به نفسه.

الأفكار التي لم تولد كلمات.

الخوف الذي لا تستطيع شرحه.

الرغبة التي أخفيها.

الأسئلة التي نجت من البوح بها.

الحزن الذي لم يفهمه أقرب الناس إليك.

الله يعلمه.

ثم تأتي الآية التي تهز القلب:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

قربٌ يليق بجلال الله، لا يشبه قرب المخلوقات، وهو سبحانه منزّه عن مشابهة خلقه؛ قربٌ

علم وإحاطة وسلطان، لا تغيب عنه سريرة ولا تختبئ منه خافية.

وحبل الوريد فيك.

معك.

لا يفارقك.

وكان المعنى ينزل من قلب المؤمن وهم المسافة بينه وبين علم الله.

أنت قد تكون وحدك في غرفة مظلمة، لكنك لست خارج علم الله.

قد لا يعرف أحد ما يجري في داخلك.

لكن الله يعلم.

وهذا القرب له وجهان:

هو طمأنينة للمؤمن،

ومهاة للمسيء.

فالذي يعلم دمعتك يعلم خطيئتك أيضاً.

والذي يرى انكسارك يرى التفاف قلبك حين تبرر لنفسك ما لا يرضيه.

ولهذا لا تسمح لك الآية أن تحول القرب الإلهي إلى عاطفة مريحة فحسب.

فبعدها مباشرة:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

الكلمات التي نطق بها تموت

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

كم تبدو الكلمة خفيفة.

تخرج في ثانية.

ننسى معظم ما قلناه أمس.

لكن القرآن ينقل الكلمة من عالم الهواء إلى عالم الحساب.

ما يلفظ.

كأن اللفظة شيء يخرج من الإنسان فيغادر ملكيته، لكنه لا يغادر سجله.

قد تعتذر وتُغفر لك.

قد تتوب فيمحو الله الذنب بفضله.

لكن أصل التربية هنا أن تعرف أن الكلام ليس فراغاً.

نحن نعيش زمناً صار فيه الإنسان يكتب عشرات الكلمات في دقائق.

تعليق.

رسالة.

اتهام.

سخرية.

شائعة.

مدح.

غيبة.

شهادة.

فتوى.

ويغلق الشاشة كأن الأمر انتهى.

لكن سورة ق تقول:

لم ينته.

وراء الشاشة كتاب.

ووراء اللسان رقيب.

ومن هنا يصبح الصمت أحياناً عبادة لا يراها أحد.

كم من كلمة غضب كدت تقولها فسكتَ لله.

هي أيضاً معلومة.

ومحفوظة.

اللحظة التي لا تقبل التأجيل

ثم تأتي الجملة التي تغير هواء السورة كله:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

لم يقل:

وستأتي.

بل:

وجاءت.

كأن المستقبل من شدة يقينه صار ماضياً.

هذه طريقة القرآن في تحطيم وهم الزمن.

أنت تقول: الموت بعيد.

والقرآن يتحدث عنه كأنه دخل الغرفة.

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

تحيد.

تميل بعيداً عنه.

تغير الموضوع حين يُذكر.

تخطط كما لو أنك مستثنى.

تفرح بالعام الجديد ولا تسأل ماذا نقص من العمر القديم.

ترى الجنائز في الناس ولا ترى جنازتك المختبئة في الغيب.

والموت لا يهتم الإنسان لأنه يحب الحياة.

إنما يفضح وهمه حين يعيش وكأن الحياة لا تنتهي.

وما أشد عبارة:

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

كل الطرق التي سلكتها للهروب انتهت عنده.

حين يستيقظ الكون على مواعده الأخير

﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

هنا لا يعود الموت حادثة شخصية.

الكون كله يدخل المشهد.

التاريخ الذي بدا طويلاً ينغلق.

الدول.

الأسواق.

الحروب.

الأحلام.

الممالك.

الخرائط.

الأسماء التي ملأت الأخبار.

كل ذلك ينتهي إلى يوم واحد:

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

ثم:

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

يا لرهبة عبارة:

كل نفس.

لا أحد خارج الصف.

الملوك والرعاة.

المشهور والمجهول.

الغني والفقير.

الذي عرفته الدنيا كلها، والذي عاش ومات ولم تكتب عنه صحيفة.

هناك تزول الامتيازات التي اخترعها البشر.

هناك تسقط امتيازات الأرض كلها.

كل نفس.

القيامة ليست خلق الحقيقة بل كشف الغطاء عنها

ثم يقال للإنسان:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

تأمل:

لم يقل: خلقنا لك حقيقة جديدة.

قال:

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.

الحقيقة كانت موجودة.

الموت موجود.

الآخرة موجودة.

الحساب حق.

الجنة حق.

النار حق.

لكن الغطاء كان على العين.

وهذا يعيد تعريف الغفلة.

الغافل ليس بالضرورة إنساناً لا يعرف.

قد يكون يعرف، لكن الحقيقة لا تعمل في حياته.

يعرف أنه سيموت، ويعيش كأنه لن يموت.

يعرف أن الله يراه، ثم يختلي بالذنب.

يعرف أن الرزق بيد الله، ثم يبيع مبادئه خوفاً على رزقه.

المعلومات موجودة.

لكن الغطاء موجود أيضاً.

والإيمان ليس مجرد إضافة معلومة إلى الدماغ.

الإيمان أن يُرفع الغطاء عن القلب.

أن ترى الآن شيئاً من حقائق الغد.

ولهذا فالمؤمن الحقيقي إنسان يحاول أن يعيش في الدنيا ببصرٍ من الآخرة.

السجل حاضر... والخصومات سقطت

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ﴾.

كل شيء حاضر.

ذلك الإنسان الذي كان يظن أنه يستطيع إعادة كتابة ماضيه بالروايات والتبريرات، يقف أمام تاريخ لا يحتاج إلى ذاكرته.

ثم:

﴿الْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٠٠﴾ مَنَعَ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٠١﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

تظهر شخصية الكفر هنا لا بوصفها فكرة ذهنية مجردة.

إنها تتحول إلى أخلاق:

عناد.

منع للخير.

اعتداء.

ريبة.

وكان الانحراف العقدي لا يبقى طويلاً محبوساً داخل الرأس؛ بل ينزل إلى السلوك.

فلا اعتقاد شجرة.

والأخلاق ثمرتها.

يقول القرين:

﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

إنها لحظة سقوط لعبة قديمة مارسها البشر منذ أول خطيئة:

البحث عن شخص آخر يحمل المسؤولية.

الشیطان.

البيئة.

المجتمع.

الأصدقاء.

الظروف.

الزمن.

كلها قد تؤثر.

لكنها لا تلغي إرادة الإنسان.

وفي ذلك اليوم:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿١٠﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ﴾.

انتهى زمن المرافعات.

كانت الدنيا هي دار الإنذار.

وهذا من أعظم معاني المسؤولية:

أن الله لم يفاجئ الإنسان بالمصير.

جاءت الرسل.

ونزلت الكتب.

وقامت الآيات.

وتكررت النذر.

وكان كل قبر رسالة صامتة.

كل جنازة إنذاراً منتقلاً في الشوارع.

ثم يجيء اليوم الذي لا يعود فيه الإنذار خبراً عن المستقبل، بل يصير حاضراً.

صورة تهدم الشعور بالأمان الكاذب

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

مشهد رهيب.

لا تحتاج السورة إلى إطالة وصف النار.

يكفي سؤال:

هل امتلأت؟

وجواب:

هل من مزيد؟

حتى يشعر الإنسان كم كان صغيراً حين كان يغامر بالأبدية من أجل لحظة.

كم من إنسان يبيع آخرته بغضب دقائق.

أو شهوة ساعة.

أو مال زائل.

أو إعجاب جمهور.

والمشكلة ليست أن المعصية دائماً كبيرة في عين صاحبها.

بل كثيراً ما تكون صغيرة جداً.

وهذه هي الكارثة:

أن يُخاطر الإنسان بشيء لا ينتهي من أجل شيء لا يكاد يبدأ حتى ينتهي.

بعد الرهبة... يقترب النعيم

ثم يتغير المشهد فجأة.

بعد:

﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾

نقرأ:

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

ما أرحم هذا الانتقال.

الجنة لا تبدو هنا في أفق بعيد.

بل:

أُزِلَّتْ.

قُرِبَتْ.

ثم:

غير بعيد.

وكان الله يعلم كم أتعبت الدنيا قلوب المؤمنين، فيأتي التعبير نفسه يحمل طمأنينة الوصول.

ما دام الطريق طويلاً، فالجنة عند الله قريبة.

ما دام البلاء ممتداً، فاللقاء قريب.

ما دام الإنسان يظن أن سنوات الطاعة كثيرة، فالخلود الذي بعدها يجعلها كأنها لحظة.

تقول الآيات:

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿١٠﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿١١﴾﴾

ثلاث كلمات تكاد ترسم سيرة المؤمن كاملة:

أواب.

حفيظ.

منيب.

الأواب ليس الذي لم يبتعد قط.

بل الذي كلما ابتعد عاد.

وهذا معنى يفتح باب الرجاء.

قد تسقط.

قد تضعف.

قد تغلبك نفسك.

لكن السؤال ليس فقط:

هل سقطت؟

بل:

إلى أين اتجهت بعد السقوط؟

ثمة فرق شاسع بين إنسان جعل الذنب وطنًا، وإنسان مر بالذنب ثم عاد يبكي على باب الله.

أواب.

كثير الرجوع.

ثم:

حفيظ.

يحفظ حدود الله.

يحفظ عهده.

يحفظ قلبه من أن يصبح أرضاً مستباحة لكل شهوة وشبهة.

ثم:

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾.

ويا لجمال الجمع بين:

خشى

و

الرحمن.

ليس الخوف من جبار مجهول.

إنها خشية الرحمن.

خشية مشبعة بمعرفة الرحمة.

هيبة لا تطردك من الله، بل تدفعك إليه.

ويكتمل المشهد:

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

في النهاية لا يقول:

وجاء بمال كثير.

ولا:

وجاء بصيت واسع.

ولا:

وجاء بانتصارات الأرض كلها.

بل:

بقلب.

فالعمر كله في أحد معانيه رحلة لصناعة القلب الذي ستأتي به إلى الله.

السؤال الأعظم ليس:

ماذا تركت خلفك؟

بل:

بأي قلب وصلت؟

الكلمة التي تحو تعب الدنيا كله
﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

سلام.

لا مرض بعده.

لا فراق.

لا خبر مفجع.

لا خوف من غد.

لا شيخوخة.

لا موت.

لا قلب يتهياً لفقد من يحب.

نحن في الدنيا لا نعرف النعمة كاملة لأن وراء كل نعمة احتمال الزوال.

البيت قد يهدم.

الصحة قد تتغير.

الحبيب قد يرحل.

القوة تضعف.

الجمال يذبل.

لكن الجنة هي أول مكان لا تقف فيه وأنت خائف من نهاية الفرح.

ولهذا:

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

ولعل أعظم نعيم النعيم أنه لا ينتهي.

ثم:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

ما يشاءون.

ثم شيء وراء المشيئة نفسها:

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

كأن خيال الإنسان مهما اتسع أصغر من خزائن الله.

الجنة ليست فقط تحقيق رغباتك.

فيها ما لم تكن تعرف أصلاً كيف ترغب فيه.

بعد نعيم الجنة تعيد السورة الإنسان مرة أخرى إلى أطلال القوة:
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.
أشد منهم بطشاً.
هذه عبارة ينبغي أن يسمعها كل طاغية.
كل دولة متجبرة.
كل إنسان يظن أن قوته الحالية نهاية التاريخ.
كان هناك من هو أشد.
كان له سلاح عصره.
وجيش عصره.
وإعلام عصره.
وغرور عصره.
﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾.
بلغوا الآفاق.
تحرخوا.
فتحوا.
بنوا.
بحثوا عن مخارج.
ثم يأتي السؤال القاطع:
﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.
هل وجدوا مهرباً؟
هذه هي المأساة المتكررة:

الإنسان يوسع ملكه أفقيًا، ولا يستطيع أن يهرب من مصيره عموديًا.
يمكنك أن تمتلك آلاف الأميال.
لكن قبرك سيظل بطول جسدك.

ليست المشكلة في الأذن

تقول السورة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

تأمل الشرط:

﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

كل إنسان يملك العضلة التي تضخ الدم.

لكن القرآن يتحدث عن شيء آخر.

قَلْبٌ حَاضِرٌ.

قلب يستقبل.

قلب لم يتحول إلى جدار.

وقد تسمع القرآن بأذنك، لكن قلبك في مكان آخر.

ولهذا:

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

ليس مجرد: سمع.

بل:

أَلْقَى السَّمْعَ.

كأن السمع شيء يضعه الإنسان بكليته بين يدي الكلام.

ثم:

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

حاضر.

وهنا سر عظيم من أسرار الانتفاع بالقرآن:

أن القرآن لا يعطي قلباً غائباً ما يعطيه لقلب حاضر.

يمكن للآية نفسها أن تمر على إنسان ألف مرة، ثم يقرأها في المرة الألف وواحد فينفتح له باب لم يره قط.

لم تتغير الآية.

هو الذي حضر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

لا تعب.

لا إعياء.

وهذه الآية تعيدك مرة أخرى إلى أصل القضية:

إذا كان خلق السماوات والأرض لم يلحقه سبحانه منه إعياء، فكيف يستبعد الإنسان بعثه؟

لكن في الآية أيضاً تصحيح عميق لتصور الله.

الله سبحانه ليس كمثله شيء، ولا تُقاس قدرته بمقاييس المخلوقين، ولا يلحقه ما يلحقهم من عجز أو إعياء.

وكل ما خطر بالبال فالله سبحانه منزّه عن أن يحيط به تصور أو يشبهه خيال.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ومن هنا فإن تصورنا لله يجب أن يبقى دائماً محفوظاً بجلال التنزيه.

كيف يواجه المؤمن ضجيج العالم؟

بعد كل هذا الحديث عن البعث والتاريخ والجنة والنار، يجيء توجيه عملي للنبي ﷺ:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

كأن رؤية الآخرة تثمر قدرة على الصبر.

وهذا مفهوم عميق.

لماذا تنهار النفس أمام كلمة الناس؟

لأن اللحظة تكبر في عينها حتى تغطي الأبدية.

لكن حين ترى المشهد من أعلى، تصغر الأصوات.

هؤلاء الذين يملأ كلامهم سمعك اليوم، أين سيكون كلامهم بعد مائة عام؟

وهؤلاء الذين يسخرون؟

وهؤلاء الذين يمدحون؟

وهؤلاء الذين يذمون؟

كلهم سيقفون في الساحة نفسها.

إذن:

لا تجعل حكم العابرين على حياتك أثقل من حكم الباقي سبحانه.

علاج الضجيج أن تعود إلى إيقاع السماء
﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ
السُّجُودِ﴾.

سبحان الله.

لم يقل له بعد أذى الناس:

ناقشهم طوال الليل.

ولا:

استنزف روحك في متابعة ما يقولون.

بل:

سبح.

لأن الروح حين تلتوث بضجيج البشر تحتاج إلى أن تغتسل بذكر الله.

وقبل طلوع الشمس.

وقبل الغروب.

ومن الليل.

كأن اليوم كله ينبغي أن تثبته محطات يعود فيها القلب إلى مركزه.

فالذكر ليس زينة إضافية في حياة المؤمن.

إنه إعادة ضبط البوصلة.

نخرج إلى الناس فتتعلق بنا أصواتهم.

نعود إلى الله فتسقط الأصوات عن القلب.

كأن القيامة صوتٌ يقترب

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

واستمع.

كأن السورة لا تريد منك أن تعرف القيامة فقط.

تريد أن تسمعها.

أن تجعلها حاضرة في وجدانك.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

لقد قالت قبل قليل عن الأرض:

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

والآن:

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

اكتمل البرهان.

ذلك النبات الذي خرج من الأرض كان مقدمة.

والآن يخرج الإنسان.

الجملة التي تختصر قصة كل إنسان
﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾.
هذه الآية تصلح أن تكون سيرة كل مخلوق.
أحياء الله.

ثم يميتة.

ثم إليه المصير.

وما بين القوسين نكتب نحن أسماء كثيرة:

طفولة.

دراسة.

حب.

زواج.

تجارة.

سفر.

صراع.

شهرة.

مرض.

نجاح.

فشل.

لكن القصة الكبرى أوجز:

أحياءك.

يميتك.

وإليه المصير.

كل ما بين البداية والنهاية مهم، لكنه لا يفهم إلا إذا وُضع داخل هذه الحقيقة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرّاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

الأرض التي ابتلعت الأجساد ستفتحها.

القبور التي بدت نهايات تصبح أبواب خروج.

ويا لقوة:

﴿سِرّاً﴾.

ما من تأخر.

ما من قبر يقول: فقدت صاحبي.

ما من ذرة تقول: لا أعرف موضعها.

ثم:

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ما تراه أنت مستحيلاً هو على الله يسير.

وكم يحتاج الإنسان هذه الحقيقة خارج سياق البعث أيضاً.

قد تقف أمام مشكلة وتقول:

كيف؟

ومن أين؟

ومتى؟

وكل أسئلتك مبنية على حدود قدرتك أنت.

لكن المؤمن يضيف إلى الحساب عنصراً يهمله الخائف:

قدرة الله.

لا تحمل فوق كتفك مهمة ليست لك

ثم يخاطب الله نبيه ﷺ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾.

أي طمأنينة للداعية في هذه الكلمات.

نحن أعلم بما يقولون.

لست محتاجاً أن تشرح لله مقدار ما آذاك الناس به.

هو يعلم.

ولست مكلفاً أن تكسر إرادتهم حتى يؤمنوا.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾.

الإيمان لا يولد بالقهر.

القلوب ليست أرضاً تحتل.

مهمتك أن تبلغ.

أن تذكر.

أن تدل.

ثم لله أمر القلوب.

وهذا يحرر الداعية من مرضين:

اليأس من الناس.

والاستبداد بهم.

لا تيأس لأن الهداية لله.

ولا تستبد لأن الهداية لله.

النهاية تعيدنا إلى البداية

ثم تنتهي السورة:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وهنا نكتشف الهندسة العجيبة للسورة.

بدأت:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

وانتهت:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.

القرآن في أول الطريق.

والقرآن في آخر الطريق.

بينهما رحلة الإنسان كلها.

ولعل هذه خاتمة مقصودة للقلب:

لسنا محتاجين دائماً إلى اختراع وسائل بعيدة لإيقاظ الفطرة.

ثمَّ كتاب بين أيدينا يعرف الطريق إلى القلب الذي خلقه الله.

فذكر بالقرآن.

لا تجعل القرآن شاهداً صامتاً على حياتك.

دعه يخاطبك.

دعه يهدمك حين تحتاج إلى الهدم.

وبينيك حين تحتاج إلى البناء.

ويخيفك حين يأمن قلبك مكر الله.

ويرجّيك حين يكاد اليأس يخنقك.

فالقرآن ليس كتاباً أنزل فقط لتُقام به الحجج على الكافرين.
إنه الكتاب الذي يعيد المؤمن نفسه من الغفلة كلما ابتلعت الأرض قبل موته.
الخطب الخفي الذي يجمع السورة كلها
حين تتأمل سورة ق كاملة، تجد أن جميع مشاهدتها تدور حول كلمة واحدة يمكن أن
نسميها:

الحضور.

الإنسان غافل.

والسورة تريد أن تجعله حاضراً.

تقول له:

ارفع رأسك:

السماء حاضرة.

انظر تحت قدميك:

الأرض حاضرة.

تذكر من سبقك:

التاريخ حاضر.

انظر في داخلك:

وسوسة نفسك حاضرة في علم الله.

احذر كلامك:

الرقيب حاضر.

تذكر نهايتك:

الموت حاضر.

تذكر ما بعده:

القيامة حاضرة في وعد الله.

تذكر المصير:

الجنة والنار حاضرتان في الحقيقة وإن غابتا عن البصر.

وأخيراً:

القرآن حاضر بين يديك.

المشكلة إذن ليست أن الله لم يرسل علامات.

بل أن الإنسان يعيش كثيراً من حياته غائباً عن العلامات.

من ﴿ق﴾ إلى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾

يمكن أن تُقرأ السورة كلها كأنها صوت واحد يقول للإنسان:

استيقظ.

أنت لست جسداً يمشي عدة عقود ثم ينطفئ.

ولست رقماً إضافياً في تاريخ الأرض.

ولست مشروعاً اقتصادياً يبحث عن بيت ومال ومكانة ثم ينتهي.

أنت مخلوق يسير إلى موعد.

كل يوم يقترب.

كل نبضة تقطع شيئاً من الطريق.

هناك كتاب يُكتب.

وهناك قبر ينتظر.

وهناك صيحة ستُسمع.

وهناك أرض ستُنشق.

وهناك قلب ستأتي به وحدك إلى الله.

فماذا تصنع بقلبك الآن؟

ذلك هو السؤال الذي تتركه سورة ق مشتعلًا فيك.

وقفة عند ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

ربما كانت هذه الآية من أكثر آيات السورة قدرة على ملامسة أعماق الإنسان.

لأن أشد ما يؤلم البشر ليس دائماً الألم نفسه.

بل الشعور بأن لا أحد يعلم حقيقة الألم.

قد تحكي ولا تستطيع أن تنقل نصف ما بداخلك.

تقول:

أنا حزين.

لكن الكلمة أصغر من الحزن.

تقول:

أنا خائف.

لكنهم لا يرون شكل الخوف حين يأتيك في الليل.

تقول:

أنا متعب.

ولا أحد يعرف كم مقاومةً احتاجها منك مجرد أن تنهض صباحاً وتواصل.

ثم تقرأ:

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

قبل أن تشرح.

قبل أن تصوغ.

قبل أن تفهم أنت نفسك ما بك.

هو يعلمه.

وهذا لا يعني أن المؤمن لا يحتاج إلى الناس.

بل يعني ألا يجعل فهم الناس له شرطاً لشعوره بأنه مرئي.
قد لا يراك الخلق.

لكن الله لا تغيب عنه منك خافية.

وهنا يتحول الإيمان من معلومة عقدية إلى وطن داخلي.

وقفة عند ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾

لو أردت أن تختار من السورة مشروع عمر كاملاً، فقد تكفيك هذه الكلمات:
أن تأتي الله بقلب منيب.

لا يجسد لم يمرض.

فكل الأجساد ستضعف.

ولا بوجه لم يهرم.

فكل الوجوه ستمر عليها السنون.

ولا بسمعة لم تمس.

فألسنة البشر لا تنضب.

لكن:

بقلب منيب.

قلب يعرف باب الرجوع.

كلما أخطأ عاد.

كلما قسا لان.

كلما تلوث غسل نفسه بالتوبة.

كلما شغلته الدنيا تذكر.

كلما أعجب بنفسه انكسر.

كلما خاف من الخلق عاد إلى الخلق.

إن أعظم نجاح في الحياة ليس أن تصل إلى نهايتها دون جرح.
بل أن تصل إلى نهايتها وقلبك ما زال يعرف الطريق إلى الله.
وسورة ق تقول لك في النهاية...

ستفقد أشياء كثيرة.

وسيتبعد أشخاص.

وستنتهي مراحل ظننت أنها لن تنتهي.

وسيتغير جسدك.

وستتغير أخبار كانت تشغلك.

وسيتأتي يوم يصبح فيه البيت الذي تسكنه بيت شخص آخر.

ويصبح رقبك الذي يتصل به الناس رقبة صامتة.

وتبقى الحقيقة الكبرى:

﴿وَالْيَنَّا الْمَصِيرُ﴾.

فلا تجعل الطريق يلهيك عن الوجهة.

ولا تجعل أصوات الناس تغطي على صوت القرآن.

ولا تجعل ظاهراً الأشياء يحجبك عما وراءها.

حين ترى السماء، تذكر الباني.

وحين ترى المطر، تذكر البعث.

وحين ترى القبور، تذكر الخروج.

وحين يخلو بك الليل، تذكر:

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

وحين تجلس في مجلس تتطير فيه الكلمات، تذكر:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾.

وحين تبهرك قوة متجبر، تذكر:

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

وحين يطول الطريق، تذكر:

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ﴾.

وحين نتعثر، كن:

أواباً.

وحين تخلو بنفسك، كن ممن:

﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾.

وحين تسأل نفسك ماذا ينبغي أن أحمل من هذه الدنيا كلها إلى الله، فليكن جواب سورة ق:

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

فذلك القلب هو حصيلة الرحلة.

وذلك هو الزاد الذي لا يضيع.

وذلك هو الشيء الذي يستحق أن تقضي عمرك كله في إصلاحه.

لقد بدأت السورة بحرف غامض يوقظ السمع:

﴿ق﴾.

وختمت بأمر واضح يوقظ القلب:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وبين النداءين كانت الرسالة:

أيها الإنسان...

أفقد من غفلتك قبل أن يكشف الغطاء..

واسمع القرآن اليوم،

قبل أن تسمع الصيحة غداً.

وانظر بقلبك الآن،

قبل أن يصبح بصرك يومئذ:

﴿حَدِيثٌ﴾.

القسم الثاني: مرايا سورة ق في القلب والحياة

حين لا يكون البعث خبراً عن الغد، بل ميزاناً لليوم
ثم طبقة أعمق في سورة ق لا تظهر من القراءة الأولى.
فالسورة لا تريد أن تمنعك فقط بأنك ستُبعث.
إنها تريد أن تعيد بناء حياتك كلها على ضوء حقيقة البعث.
وهنا الفرق بين أن تعرف الآخرة، وأن تعيش بها.
كثيرون لا ينكرون الموت.
لكنهم يعيشون كما لو أن الموت لا يخصهم.
وكثيرون يؤمنون بالحساب.
لكن الحساب لا يدخل في قراراتهم اليومية.
وقد يعرف الإنسان أن الله يعلم سره، ثم يتصرف في خلوته كما لو أن وراء الأبواب منطقة
لا تبلغها الرقابة الإلهية.
ولهذا جاءت سورة ق لا لتضيف خبراً جديداً إلى الذاكرة، بل لتردم المسافة بين المعلومة
والسلوك.
إنها تريد أن تنقل الآخرة من آخر الكتاب إلى أول الصفحة.
ومن آخر العمر إلى أول القرار.
ومن المقابر إلى الأسواق.
ومن المواعظ إلى التفاصيل.
فالؤمن بالبعث حقاً لا يظهر إيمانه فقط حين يسمع الحديث عن القبور.
بل يظهر حين يختلف مع إنسان.
حين يملك مالاً.
حين يغضب.
حين يخلو.

حين يتكلم.

حين يستطيع أن يظلم ولا يراه أحد.

هناك يظهر:

هل القيامة فكرة في ذهنه؟

أم حقيقة تتحرك معه؟

ليس عبثاً أن يكون أول الصدام في السورة مع قضية البعث.
فالإنسان إذا سقطت الآخرة من وعيه تغير كل شيء..
إذا آمن أن هذه الحياة هي الصفحة الوحيدة من كتاب الوجود، صار من الطبيعي أن يقاتل
من أجل كل مكسب فيها.
سيبدو فقد المال كارثة كبرى.
وفقد المكانة انهباًراً.
والهزيمة نهاية.
واللذة غاية.
والنجاح بأي ثمن حكمة.
لكن حين تدخل الآخرة إلى الحساب، تتغير قيمة الأشياء.
قد تخسر هنا وتربح هناك.
قد تُظلم هنا وتُنصف هناك.
قد تترك شهوة قصيرة لتتال نعيماً لا ينتهي.
قد تقول كلمة حق فتدفع ثمنها في الأرض، لكنها تصبح ذخيرة في السماء.
ولهذا فالإيمان بالبعث ليس باباً من أبواب العقيدة منفصلاً عن بقية الحياة.
إنه المعادلة التي تعيد تسعير الأشياء كلها.
من يؤمن بيوم لا ينتهي، لن يبيع نفسه من أجل يوم ينتهي.
ومن يوقن أن هناك ميزاناً آخر، لن يجعل ميزان الناس آخر الحقيقة.

لا شيء يضيع في ملك الله
يمكن أن نقف طويلاً أمام هذه العبارة:
﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.
ليس الحديث عن الأجساد وحدها.
في روح الآية معنى واسع:
الله لا يفقد الأشياء حين نفقدها نحن.
نحن نعيش تجربة الفقد لأن علمنا محدود.
يفقد الإنسان عزيزاً، فيختفي وجهه عن البيت.
تختفي نبرته.
خطواته.
عاداته.
ثم يشعر أن العالم ابتلعه.
لكن سورة ق تعيد ترتيب هذا الشعور:
الغائب عنك ليس غائباً عن الله.
والذي ابتلعه الأرض لم يخرج من سلطان الله.
والذين مضوا من تاريخك لم يذهبوا إلى العدم.
هم انتقلوا من مدى بصرك، لا من مدى علم الله.
وهذا وحده يبدل معنى الموت.
الموت في نظر العين اختفاء.
وفي ميزان الوحي انتقال.
والقبر في نظر الجسد حفرة.

وفي سياق السورة محطة بين خلقين.
ولهذا يربط القرآن بين معرفة الله لما تأخذ الأرض وبين إمكان الإعادة.
فالذي يعلم موضع كل ذرة، لا يعجزه أن يعيدها.

السورة ترسم طريق القلب من الفوضى إلى الرجوع

في أول السورة:

﴿فَهُمْ فِي أَمْرِ مَرْيَمَ﴾.

وفي قرب نهايتها:

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

وهذه مقابلة شديدة الجمال.

في البداية:

اضطراب.

وفي النهاية:

إنابة.

في البداية:

الحق جاء، لكن القلب رفضه فدخل في المريج.

وفي النهاية:

القلب عرف ربه فرجع إليه.

وكان السورة تقول إن أخطر ما يفعله التكذيب ليس أنه يفسد جواباً نظرياً.

بل أنه يفسد بوصلة القلب.

حين يرفض الإنسان الحقيقة الأولى، يبدأ بالبحث عن بدائل.

ثم يحتاج لكل بديل إلى تبرير.

ثم لكل تبرير إلى تبرير آخر.

حتى تصبح حياته شبكة من الدفاعات النفسية.

فهو لا يريد الحقيقة بقدر ما يريد أن يحافظ على الصورة التي اختارها لنفسه.

ومن هنا:

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

أما المؤمن فليس بلا أخطاء.

لكنه يملك شيئاً ينقذه دائماً:

جهة الرجوع.

وهذا هو معنى القلب المنيب.

ليس قلباً لم يضل عليه الطريق لحظة.

بل قلباً لا يرضى أن يجعل الضلال طريقاً دائماً.

﴿تَبَصَّرْ وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

التبصرة شيء.

والذكر شيء آخر.

قد ترى الحقيقة لأول مرة.

وهذه تبصرة.

وقد تكون عارفاً بها ثم نسيتها.

وهذه تحتاج إلى ذكر.

وهذا يكشف طبيعة الإنسان.

ليست مشكلتنا دائماً الجهل.

كثير من مشكلاتنا تأتي من النسيان.

نعرف أن الدنيا زائلة ثم نتعلق بها.

نعرف أن الله رازق ثم نقلق.

نعرف أن العمر قصير ثم نبده.

نعرف خطر اللسان ثم نتكلم.

نعرف قيمة الصلاة ثم نؤجل الخشوع.

نحن لا نحتاج كل يوم إلى معلومة جديدة.

نحتاج أحياناً إلى أن تعود المعلومة القديمة حية.

وهذه وظيفة القرآن.

القرآن لا يخبرك فقط.

بل يذكرك.

والتذكير يعني أن الحقيقة موجودة في مكان ما من وجدانك، لكنها غطيت بغبار الحياة.

33. الماء المبارك... صورة للوحي أيضًا

حين تقول السورة:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾

يبدو السياق في ظاهره عن المطر والإنبات.

لكن النفس المتدبرة ترى تشابهاً بديعاً بين نزول الماء ونزول الوحي.

هذا ينزل من السماء.

وذاك ينزل من السماء.

الماء يحيي الأرض.

والوحي يحيي القلب.

الأرض قد تكون يابسة، لكن بذور الحياة مخبئة في أعماقها.

والقلب قد يبدو قاسياً، لكن كلمة من القرآن قد تشق داخله مكاناً لم يفتحه كلام البشر كله.

وكم من إنسان كان قلبه أرضاً متشققة.

ثم نزلت عليه آية.

فأنبت خوفاً.

أو رجاء.

أو توبة.

أو يقيناً.

ولهذا لا ينبغي أن نياس من القلوب.

الأرض الميتة التي تراها في الشتاء لا تحمل على سطحها دليل الربيع القادم.

ومع ذلك يأتي الماء.

فتغیر.

وكذلك الإنسان.

قد لا ترى في ظاهره أي علامة.

لكن الله يعلم أين يضع قطرة الهداية.

حين يتحول المشهد الكوني إلى مرآة للمصير
من أبداع أساليب سورة ق أنها لا تفصل العقيدة عن الطبيعة.
لا تقول لك:

آمن بالبعث لأننا أمرناك أن تؤمن فقط.
بل تقول:

انظر حولك.

إن عقيدة البعث مكتوبة في الأرض.
أنت ترى الحياة تخرج من الموت كل عام.
وترى النبات يشق التراب.
وترى البذور الجافة تصير أغصاناً.
وترى الأرض الصامتة تمتلئ حركةً وألواناً.
ثم تمر على ذلك كأنه مشهد زراعي.
أما القرآن فيقول:

لا.

هذا درس عقدي.

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

كأن الكون كتاب تفسير مفتوح.
والربيع حاشية على آيات القيامة.
والزراع حجة.
والمطر برهان.

والأرض واعظ لا يتكلم.

تتنقل سورة ق بين ثلاثة كتب كبرى:

مِثَاب الكون.

ومِثَاب التاريخ.

ومِثَاب النفس.

في الكون:

السماء.

الأرض.

الجبال.

النبات.

المطر.

وفي التاريخ:

قوم نوح.

وأصحاب الرس.

وئمود.

وعاد.

وفرعون.

وفي النفس:

الوسوسة.

والقول.

والغفلة.

والخشية.

والإنابة.

وكان القرآن يقول:

مهما كانت جهة نظرك فستجد الدليل.

إن نظرت فوقك: دليل.

إن نظرت خلفك إلى التاريخ: دليل.

إن نظرت داخلك: دليل.

فأين يهرب الإنسان من الحقيقة؟

إن أغلق كتاب السماء، فتح له القرآن كتاب الأرض.

وإن لم يتأمل الأرض، ساق إليه التاريخ.

وإن أعرض عن التاريخ، رده إلى نفسه.

وفي النفس شيء لا يستطيع الفرار منه:

أنه يعلم في أعماقه أنه ليس مكتفياً بذاته.

حركة السورة من الآفاق إلى الأعماق

في أول الرحلة قالت:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾.

ثم بعد آيات قالت:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ﴾.

ما أوسع هذه المسافة في الصورة.

من أقصى ما تراه العين فوقك،

إلى شيء يجري في داخلك.

وكان السورة تريد أن تطوق وعيك من الخارج والداخل.

انظر بعيداً:

آيات الله.

انظر قريباً:

علم الله.

لا فضاء خارج آياته.

ولا سريرة خارج علمه.

الكون من حولك شاهد.

والنفس داخلك مكشوفة.

ولذلك فالغفلة ليست ناتجة عن قلة الأدلة.

إنها ناتجة عن قلة الحضور.

الله يعلم الجملة قبل أن تعرف كيف تقولها

قد يمر الإنسان بتجربة لا يجد لها لغة.

وهذا من أشد أشكال الوحدة.

أن تحمل معنى لا تعرف كيف تعبر عنه.

أن تقول لنفسك:

لا أحد يفهمني.

ولعل هذه الآية من أعظم ما يداوي ذلك الشعور:

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

ما زال الأمر وسوسة.

لم يصبح كلمة.

لم يتشكل خطاباً.

وربما لم تفهمه أنت كاملاً.

ومع ذلك:

نعلم.

الله يعلم القصة قبل أن تحسن روايتها.

ويعلم الجرح قبل أن تعرف اسمه.

ويعلم الدعاء حين يكون في صدرك مجرد أنين لا كلمات له.

وهنا يتعلم المؤمن أن الدعاء ليس بطولية بلاغية.

الله لا يحتاج منك إلى صياغة مذهلة حتى يفهمك.

هو يعلم موضع الألم قبل وصفك له.

بعد آية القرب تأتي مباشرة آيات الملائكة والكتابة.

وهذه مجاورة شديدة الدلالة.

حتى لا يتحول معنى القرب إلى شعور عاطفي منزوع المسؤولية.

القرب الإلهي رحمة.

لكنه أيضًا إحاطة.

ولهذا:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

ثم:

﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

كأن السورة تقول:

الذي يطمئن لأن الله يعلم وجعه، ينبغي أن يستحي لأن الله يعلم خطيئته كذلك.

الإيمان المتوازن لا يجعل الإنسان يختار من صفات المعنى ما يريحه ويهمل ما يؤدبه.

الله رحيم.

والله يحاسب.

الله قريب.

والله يعلم.

الله يغفر.

والله لا تخفى عليه خافية.

ومن جمع هذه المعاني استقام قلبه بين الرجاء والمهابة.

من أقطع ما يمكن أن يتدبره الإنسان في:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾

أن بعض الكلمات تعيش بعد موت قائلها.

قد يموت إنسان وتبقى كلمة علم عليها الناس.

وقد يموت آخر وتبقى إشاعة أطلقها.

قد يكتب أحدهم سطرًا فينتفع به ألف إنسان بعده.

ويكتب آخر باطلاً فيتداوله الناس سنوات.

فيخرج صاحب الكلمة من الدنيا، لكن الكلمة لا تزال تعمل.

وهنا يتحول الكلام إلى نوع من العمر الممتد.

بعض الناس تنتهي أجسادهم وتظل حسناتهم تتكاثر.

وبعضهم تنتهي أجسادهم وتظل آثار أخطائهم تتحرك.

ولهذا لا ينبغي أن تسأل قبل أن تتكلم فقط:

هل هذه العبارة جميلة؟

بل:

لوقيت الله بهذه الجملة، هل أحب أن أراها في كتابي؟

ذلك سؤال من سورة ق.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يصنع صورة عن نفسه.

يخفي.

يجمل.

يبرر.

ينتقي ما يُظهر للناس.

وقد يقضي سنوات وهو يدير صورته أكثر مما يدير قلبه.

ثم:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

هناك تسقط العلاقات العامة كلها.

لا يبقى إلا الإنسان وحقيقته.

ولهذا فإن الموت ليس فقط نهاية للجسد.

إنه نهاية القدرة على التظاهر.

يتوقف التعديل.

تنتهي المسودة.

يُغلق باب العمل.

ولهذا كانت التوبة عظيمة الآن لأنها تقع في زمن الإمكان.

أما حين يأتي:

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾

فقد انتقل الإنسان من دار الكتابة إلى دار القراءة.

أخطر حجاب ليس على العين بل على البصيرة
 الغطاء الحقيقي الذي تحذر منه سورة ق ليس غطاء البصر.
 فالإنسان قد يرى الأشياء بوضوح شديد ومع ذلك لا يبصر معناها.
 يرى جنازة، ولا يتذكر موته.
 يرى شائبا، ولا يتذكر شيخوخته.
 يرى غروب الشمس، ولا يتذكر أن لكل نهار نهاية.
 يرى طفلاً يولد، ولا يتذكر أنه بدأ مثله.
 يرى ظالماً يسقط، ولا يتذكر سنن الله.
 الأحداث واضحة.
 لكن المعنى محجوب.
 ولهذا يوم القيامة:
 ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.
 ليس لأن العين أقوى فحسب.
 بل لأن الأوهام انتهت.
 والسعيد من حاول أن يكتسب شيئاً من هذا البصر الحاد قبل القيامة.
 أن يرى الأشياء بحقيقتها الآن.
 أن يرى المال أداة، لا إلهاً.
 والشهرة ظلاً، لا خلوداً.
 والعمر رأس مال، لا وقتاً فائضاً.
 والذنب ناراً وإن بدا لذيذاً.
 والطاعة نجاة وإن بدت ثقيلة.

فردية اللقاء

من أعظم معاني الآخرة في سورة ق أنها تنتزع الإنسان من أوهام الجماعة.
في الدنيا نذوب في المسميات.

عائلة.

قبيلة.

جماعة.

دولة.

حزب.

مؤسسة.

جمهور.

لكن القيامة تعيدك إلى وحدتك الأولى:

نفس.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

لن تقف يومئذ خلف جمهور.

لن يوزع الذنب بالتساوي على الحاضرين.

لن ينفعلك أن تقول:

كان الجميع يفعل.

ذلك منطق الدنيا.

أما الآخرة فننطقها:

ماذا فعلت أنت؟

وماذا أردت أنت؟

وأَيُّ قلب جئت به أنت؟
وهذه الفردية لا تعني الانعزال في الدنيا.
بل تعني أن المسؤولية لا يمكن تفويضها.
قد تستشير الآخرين في كل شيء..
إلا أنك لا تستطيع أن تجعل أحداً يحمل عنك قلبك إلى الله.

حين تنتهي ثقافة الأعذار
 الإنسان ماهر جداً في بناء الأعذار.
 ولو بذل نصف ذكائه في إصلاح نفسه بدل تبريرها، لتغيرت حياته.
 كل خطأ له قصة.
 كل تقصير له تفسير.
 كل ظلم له سياق.
 كل تأخير له ظرف.
 ثم تأتي الآخرة:
 ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾.
 ليس لأن العدل غائب.
 بل لأن الحقائق مكتملة.
 ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾.
 أي أن المشكلة لم تكن في غياب البيان.
 بل في الإعراض عنه.
 وهذه الآية تعلم المؤمن أن يقيم محكمة صغيرة في قلبه قبل المحكمة الكبرى.
 أن يقول لنفسه:
 لا أريد تفسيراً لخطئي.
 أريد أن أعرفه ثم أصلحه.
 هذه من أنضج صور التوبة.

في نهاية التاريخ لن يبقى سؤال عن العدالة
 نحن نرى في الدنيا أشياء كثيرة تجرح إحساسنا بالعدل.
 يموت مظلوم قبل أن يرى إنصافه.
 ويعلو ظالم زمناً.
 ويأخذ إنسان ما ليس له.
 ويُحرم آخر مما يستحق.
 ولو كانت الدنيا هي المشهد الأخير لبقيت أسئلة ضخمة معلقة في سقف الوجود.
 لكن سورة ق تقول:
 ليس هذا المشهد الأخير.
 هناك يوم تتم فيه الجملة.
 وتوضع النقطة الأخيرة.
 وعندها يظهر أن شيئاً لم يضع.
 ﴿وَمَا أَنَا بِظَالَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.
 ولهذا فإن الإيمان بالآخرة ليس مجرد خوف من الحساب.
 إنه أيضاً رجاء في اكتمال العدالة.

مقابلة تهز القلب

في السورة عبارتان متقاربتان لفظاً، متباعدتان مصيراً.

جهنم تقول:

﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

ثم عن أهل الجنة:

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

يا لها من مقابلة.

هناك مزيد من العذاب.

وهنا مزيد من النعيم.

والإنسان الآن يقف في المسافة بين المزيدين.

أي طريق يبني؟

أي مصير يهيئ؟

السورة لا تترك الآخرة مشهداً باهتاً.

إنها تجعلها قطبين عظيمين، وتقول لك:

قراراتك الصغيرة اليوم تتحرك نحو أحدهما.

ليس المطلوب قلباً بلا جراح

من رحمة القرآن أنه لم يقل إن الجنة لمن لم يخطئ.

قال:

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾.

والأواب كثير الرجوع.

وفي الكلمة اعتراف ضمني بطبيعة الطريق.

هناك ابتعاد.

لكن هناك عودة.

هناك نسيان.

لكن هناك تذكر.

هناك فتور.

لكن هناك يقظة.

وهذه الكلمة تمنع المؤمن من خطأ خطير:

أن يظن أن فشله في مرة يعني فشل الرحلة كلها.

لا.

ما دام باب الرجوع مفتوحاً، فلا تجعل الشيطان يحول العثرة إلى إقامة.

ارجع.

ولو للهرة الألف.

فالله سمي من أهل جنته:

أواباً.

أجمل الطاعات هي التي لا يراك فيها أحد

لماذا قال:

بالغيب؟

لأن حقيقة الإنسان تظهر حين يغيب الجمهور.

في العلن قد تصنع الطاعة لك صورة.

أما في الخفاء فلا يبقى إلا الله.

أن تغلق باباً على نفسك ثم تترك معصية لأن الله يراك.

أن تقوم في الليل ولا يعلم بك أحد.

أن ترجع حقاً تستطيع أن تستولي عليه دون أن تنكشف.

أن تكف لسانك عن شخص لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

هذه هي خشية الغيب.

وهنا يتحرر المؤمن من عبودية الجمهور.

لا يحتاج في كل خير إلى شاهد من البشر.

يكفيه شاهد السماء.

ماذا لو جعلنا هذه الآية معيار العمر كله؟

تخيل لو أن الإنسان اتخذ هذه الآية معياراً لكل قرار.

يسأل:

هل هذا يجعل قلبي أقرب إلى الإنابة أم أبعد؟

هذه الصحبة؟

هذا العمل؟

هذا الكلام؟

هذا المال؟

هذا الغضب؟

هذا الطموح؟

هذه العادة؟

ليست كل الأشياء تُقاس بالحلال والحرام فقط.

هناك سؤال أدق:

ماذا تفعل هذه الأشياء بقلبك؟

قد يكون شيء مباحاً، لكنه يستهلك قلبك حتى لا يبقى فيه مكان للآخرة.

وقد يكون عمل صغيراً، لكنه يردك إلى الله كل يوم.

سورة ق تلفت النظر إلى أن نهاية الرحلة ليست قائمة ممتلكات.

إنها حالة قلب.

الجنة نهاية القلق البشري

الإنسان في الدنيا يعيش تحت ظلال الاحتمالات.

قد أفقد.

قد أمرض.

قد يفشل الأمر.

قد يتغير من أحب.

قد يأتي ما لا أريد.

حتى الفرح يحمل في داخله خوفاً صغيراً من زواله.

أما حين يقال:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾

فقد انتهى زمن الاحتمال المؤلم.

أنت في مكان لا يختبئ خلف فرحه فراق.

ولا خلف صحته مرض.

ولا خلف شبابه هرم.

ثم يأتي:

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

وهذه الكلمة وحدها تكفي لتصنع معنى الجنة في القلب.

الخلود ليس امتداد الزمن فقط.

إنه نهاية الخوف من أن ينتهي الجميل.

حين تصبح الأمنية حقيقة
في الدنيا هناك دائماً فجوة بين الإرادة والقدرة.
نشاؤ أشياء لا نستطيعها.
نحب أشخاصاً لا نستطيع إبقاءهم.
نريد صحة لا نملك ضمانها.
نحلم بأشياء لا تأتينا.
أما الجنة:
﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾.
سقطت الفجوة.
ما تشاؤه يأتيك.
ثم يفاجئك الله بما هو فوق مشيئتك:
﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.
وهنا يصل الكرم إلى ما وراء الخيال.

حين تذكر السورة الأمم السابقة لا تريد أن تفتح متحفًا.
إنها تقول للحاضر:

لا تكرر الغرور القديم.
﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

كل قوة معاصرة تعيش وهماً خاصاً:

أن الأدوات الجديدة ألغت السنن القديمة.

لكن سنن الله ليست بدائية كي تصبح قديمة.

قد تتغير الأسلحة.

وتتغير العمارة.

وتتغير وسائل السيطرة.

لكن الإنسان نفسه يبقى معرضاً للطغيان نفسه.

والعاقبة نفسها تنتظر من يسلك الطريق نفسه.

سؤال يطارد الغرور

محِص:

مهرب.

منجى.

مفر.

وما أوجع السؤال إذا وُضع أمام حضارات بلغت آفاقاً بعيدة:

﴿هَلْ مِنْ مَّحِصٍ﴾.

ذهبوا بعيداً في الأرض.

لكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من ملك الله.

وهذا هو الوهم القديم:

أن الإنسان إذا اتسعت قدرته اتسعت مساحة خروجه من سلطان الله.

والحقيقة عكس ذلك.

كل ما اكتشفته البشرية من مجرات وقوانين وذرات لم يفتح نافذة واحدة خارج الملك.

كل اتجاه في الكون ينتهي إلى خلقه.

ليست كل القلوب حاضرة

هذه العبارة مخيفة إذا تأملتها:

﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

كأن بعض الناس يعيش بجسد كامل، لكن قلبه غائب عن الحقيقة.

والقلب في القرآن ليس مجرد موضع للمشاعر.

إنه موضع الفهم والبصيرة والإرادة.

قد يكون عقل الإنسان ممتلئاً بالمعلومات، وقلبه فارغاً من اليقظة.

وقد يكون بسيط العلم، لكنه يرى الحق بقلبه رؤية تغير حياته.

ليس السؤال:

كم آية قرأت؟

بل:

كم آية قرأتك أنت؟

كم آية دخلت إلى مكان القرار فيك؟

كم آية غيرت عادة؟

أوقفت معصية؟

دفعتك إلى ردّ مظلمة؟

فتحت باب دمة؟

إنها هناك تصبح:

ذكرى لمن كان له قلب.

فن الاستماع الذي فقدناه

نحن نسمع كثيراً.

لكننا قليلاً ما نلقي السمع.

فرق بين أذن تمر بها الكلمات، وأذن تسلم نفسها للكلام.

وفي عصر الامتلاء بالأصوات، يصبح الإنصات عبادة نادرة.

رسالة تصل.

إشعار.

صوت.

صورة.

خبر.

ثم نأتي إلى القرآن بعقل موزع على عشر جهات.

وسورة ق تقول:

إذا أردت الذكري، فتعال حاضراً.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

ربما لا تحتاج إلى قراءة عشر صفحات.

ربما تحتاج إلى آية واحدة، لكن بقلب كامل.

الإيمان بالآخرة يخفف وزن كلام الناس

لماذا تأتي الصبر بعد عرض مشاهد القيامة؟

لأن من رأى النهاية لا تفتته الضوضاء في منتصف الطريق.

من عرف الميزان الأخير لا يعيش أسير الموازين المؤقتة.

قد يمدحك الناس وأنت ساقط عند الله.

وقد يذمونك وأنت ثابت عنده.

والعاقل لا يجعل الحكم المؤقت يهدم علاقته بالحكم الباقي.

هذا لا يعني أن الإنسان لا يتألم من كلام الناس.

النبي ﷺ أمر بالصبر لأن الأذى مؤلم.

لكن الفرق أن الألم لا يتحول إلى بوصلة.

نتألم.

ثم تمضي.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

التسبيح تنزيه.

كأنك تقول لقلبك:

لا تجعل الناس أكبر مما هم.

الله أكبر من كلامهم.

أكبر من قوتهم.

أكبر من ظلمهم.

أكبر من مخاوفك.

وحين يتضخم شيء من الدنيا في النفس، يعيده التسبيح إلى حجمه.

ولهذا فإن الذكر يعالج اختلال المقاييس.

ما بدا لك جبلاً أمام خوفك، يصغر حين تقف أمام عظمة الله.

أطراف اليوم ينبغي أن تكون لله

في السورة توقيت جميل للذكر:

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

بداية النهار.

ونهايته.

كأن القلب يحتاج أن يدخل اليوم بالله، وأن يخرج منه بالله.

ما بينهما قد يختلط بالناس.

بالسوق.

بالعمل.

بالمشكلات.

بالطلبات.

لكن الأطراف تعيد ترتيب المركز.

ومن فقه الروح أن تكون لك لحظات لا يسمح فيها للعالم أن يحتل قلبك كله.

بعد أن طال الكلام، يطلب منك القرآن الإنصات
قرب ختام السورة يأتي أمر واحد شديد الرقة والرغبة:
﴿وَاسْتَمِعْ﴾.

كأن الرحلة كلها وصلت إلى هذه الحالة.

اسمع.

لا تجادل.

لا تهرب.

لا تشتت نفسك.

هناك نداء قادم.

وصيحة قادمة.

ونخرج قادم.

وكل إنسان سيعرف يومها أن الخبر كان حقًا.

فلماذا لا نسمعه الآن من القرآن قبل أن نسمعه هناك من الواقع؟

الإنسان خرج إلى الدنيا مرة، وسيخرج مرة أخرى

نحن نحتفل بالخروج الأول.

ولادة الإنسان.

بداية حياته.

صوته الأول.

لكن سورة ق تتحدث عن خروج آخر.

خروج من الأرض.

والفرق بين الخروجين هائل.

في الأول يخرج الطفل بلا سجل.

وفي الثاني يخرج الإنسان ومعه تاريخه.

في الأول يستقبله أهله.

وفي الثاني يستقبله الحساب.

في الأول يبدأ العمل.

وفي الثاني يبدأ الجزاء.

وحين نتذكر الخروج الثاني، تصبح قيمة الوقت بين الخروجين أوضح.

كل الطرق منتبّهة إلى الله

يمكن للإنسان أن يختار مهنته.

بلده.

أصدقاءه.

مساره.

كثيراً من تفاصيل حياته.

لكنه لا يختار أن يكون المصير إلى غير الله.

﴿وَالْيَا مَعْصِرُ﴾.

المؤمن والكافر.

الطائع والعاصي.

الظالم والمظلوم.

كلهم يسرون إلى الموعد نفسه.

الفرق ليس في الوصول.

الفرق في حال الوصول.

ولهذا جاء في السورة:

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

كأن السؤال الحقيقي ليس:

هل ستصل؟

فأنت واصل.

بل:

كيف ستصل؟

القبور أبواب لا نهايات

نحن نسمي القبر مثوى أخيراً في لغتنا اليومية.

لكن القرآن لا يسمح لهذه العبارة أن تستقر في الوعي.

القبر ليس آخرًا.

الأرض نفسها ستتشقق.

والأجساد ستخرج.

﴿سِرَاعًا﴾.

ما كان يبدو ساكناً سيصير حركة.

وما كان يبدو نهاية سيصير بداية مشهد آخر.

وهكذا يعلم القرآن الإنسان ألا يحكم على الأشياء من اللحظة التي يراها.

كم من شيء يبدو نهاية وهو باب.

وكم من هزيمة تبدو ختاماً وهي مقدمة.

والقيامة أعظم انقلاب للظاهر إلى الحقيقة.

صعوبة الشيء في عينك لا تقول شيئاً عن قدرة الله
نحن نقيس المشكلات بأحجامنا.
ثم ننقل هذا القياس خفيةً إلى تصورنا عن قدرة الله.
نقول:

هذا الأمر بعيد.

هذا التغيير مستبعد.

هذه العقدة مستحيلة.

ثم تأتي العبارة:

﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

السموات ليست معيار القدرة.

ولا الأجساد المتناثرة.

ولا كثرة الخلق.

فقدرة الله لا تتدرج بين سهل وصعب كما تتدرج قدرة البشر.
سبحانه.

راحة المظلوم حين يعلم أن القصة لم تصل إلى الله ناقصة

كم يتعب الإنسان حين يسيء الآخرون رواية قصته.

يُقْتَطَعُ كلامه.

يُسَاء فهمه.

يُتَهَم بما لم يفعل.

وقد لا يستطيع تصحيح الصورة عند كل الناس.

لكن هناك مقام لا تحتاج فيه إلى الدفاع عن نفسك:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

الله لا تصله رواية مشوهة.

ولا يحتاج إلى شاهد حتى يعلم.

ولا يخدعه خطاب قوي.

ولا يضيع حقاً لأن صاحبه ضعيف البيان.

وهذا يريح القلب من هوس أن يفهمه الجميع.

يكفيك أن تكون حقيقتك معلومة لمن سيحكم في النهاية.

لا طريق إلى القلب بالقسر

حتى الرسول ﷺ لا يُكَلِّفُ بإِجبار القلوب.

والقرآن يعيد هنا تعريف الدعوة.

مهمتها ليست السيطرة.

بل البلاغ.

ليست أن تهزم الإنسان.

بل أن تفتح له باباً إلى الحق.

لا يمكن زرع الإيمان بالقوة.

يمكن للقوة أن تصنع صمتاً.

لكنها لا تصنع يقيناً.

القلب له باب آخر.

وبابه:

التذكير.

ولهذا تأتي النهاية:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.

لم يقل:

فذكر بأعقد الحجج.

ولا:

بأطول الخطب.

قال:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾.

لأن القرآن لا يخاطب العقل وحده.

إنه يعرف الطريق إلى الفطرة.

يخاطب العقل بالدليل.

والقلب بالرجاء والخوف.

والخيال بالمشهد.

والضمير بالسؤال.

والروح بالإيقاع.

ولهذا قد تفعل آية واحدة في قلب ما لا تفعله عشرات الصفحات.

ليس لأن الصفحات بلا قيمة.

بل لأن القرآن كلام الله.

قد يظن قارئها أنها سورة موت وقيامة.

لكنها في الحقيقة سورة حياة أيضاً.

لأن من فهم الموت عرف كيف يعيش.

الموت في القرآن لا يأتي كي يعطل الحياة.

بل كي ينظفها من التفاهة.

من عرف أن عمره محدود، صار أكثر حرصاً على المعنى.

من عرف أن كلمته مكتوبة، صار أكثر حرصاً على لسانه.

من عرف أن قلبه هو ما سيأتي به، صار أقل انشغالاً بالقشور.

من عرف أن الجنة غير بعيدة، هان عليه بعض تعب الطريق.

فذكر الموت لا يقتل الحياة.

إنما يقتل الوهم.

نحن نقيس القرب بالمسافة.
لكن القرآن يفتح معنى أوسع.
قد يكون إنسان بجوارك ولا يعلم ما بك.
وقد يكون بينك وبين آخر آلاف الأميال ويعرف بعض قصتك.
أما الله فيعلم ما لم تتحول أنت بعد إلى لغة تستطيع قولها.
وهكذا يصبح القرب الإلهي معنى يحرر الإنسان من شعوره بأنه وحيد في أعماقه.
لن تكون مجهولاً تماماً أبداً.
لن يكون حزنك بلا شاهد.
لن يكون دعاؤك بلا سامع.
لن تكون خلواتك خارج العلم.
وهذه في الوقت نفسه مواساة ومهابة.

النجاة ليست أن تعيش طويلاً.

فكل عمر سينتهي.

وليس أن لا تصيبك مصيبة.

فالدنيا دار ابتلاء.

وليس أن لا يكرهك أحد.

فالناس مختلفون.

النجاة الكبرى أن تعبر هذا كله ثم تصل:

﴿يَقْلَبُ مُنِيبٌ﴾.

تلك هي النجاة التي لا يستطيع الموت إبطالها.

قد تخسر مالاً وتنجو.

قد تخسر منصباً وتنجو.

قد تخسر صديقاً وتنجو.

قد تخسر معركة من معارك الدنيا وتنجو.

لكن الخسارة التي لا تعوض أن تصل يوم كشف الغطاء وتكتشف أنك أنفقت عمرك في شيء لم يكن يستحق العمر.

وهذا هو الرعب الحقيقي في:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾.

أن تعرف الحقيقة متأخراً.

وما أشد الألم حين يأتي الوضوح بعد انتهاء زمن التغيير.

بعد أن تقرأها، لا ينبغي أن تغلق المصحف كما فتحته.

السورة تسألك:

هل هناك كلمة ينبغي أن تتوقف عنها؟

هل هناك حق ينبغي أن ترده؟

هل هناك ذنب طال مقامه في حياتك؟

هل هناك شخص ظلمته؟

هل هناك صلاة تحتاج أن تعود إليها بقلب حاضر؟

هل هناك شيء من الدنيا كبر في عينك أكثر مما يستحق؟

هل نسيت الموت؟

هل بعدت عن القرآن؟

هل قلبك يعرف طريق الإنابة؟

هذه ليست أسئلة هامشية.

إنها ما أرادت السورة أن تصنعه.

أن تحول القيامة من مشهد بعيد إلى سؤال قريب.

أفق قبل أن يكشف الغطاء

ربما كان أوجز وصف لسورة ق أنها سورة إزالة الحجب.

حجاب الاعتقاد عن السماء.

حجاب الغفلة عن الأرض.

حجاب القوة عن التاريخ.

حجاب السرية عن النفس.

حجاب النسيان عن الكلمات.

حجاب الحياة عن الموت.

حجاب القبر عن البعث.

حجاب الدنيا عن الآخرة.

ثم يأتي اليوم الذي يُرفع فيه الحجاب كله:

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.

لكن المؤمن الذي لا ينتظر ذلك اليوم كي يبصر.

يحاول أن يكشف غطاءه الآن.

بالقرآن.

بالتوبة.

بالذكر.

بمراقبة القلب.

بالتفكير.

وبالرجوع المتكرر إلى الله.

ولعل أجمل ما يمكن أن يخرج به المرء من هذه السورة أن يقول لنفسه كل صباح:

أنا اليوم أسير إلى الله.

وسيكُتب كلامي.

ويعلم سري.

وسياتي موتي.

وستنشق الأرض عني.

وسأقف وحدي.

فليكن أعظم عملي اليوم:

أن أصلح القلب الذي سأجيء به.

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

وهذا تصبح سورة ق ليست سورة تقرأها في المصحف فحسب.

بل مرآة تصحبك في الطريق.

كلما نسيت أعادتكَ.

كلما قسا القلب ضربت عليه بآية.

كلما اتسعت الدنيا في عينك فتحت لك باب الآخرة.

وكلما شعرت أنك بعيد، أعادت إلى قلبك ذلك النداء المهيّب المطمئن:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

ثم تتركك عند آخر السورة لا أمام فكرة، بل أمام مهمة:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وكان السورة تقول لك:

لقد سمعتَ.

فلا تعد إلى الغفلة كما كنت.

لقد رأيتَ.

فلا تعش كأن الغطاء لم يُرفع قليلاً.

لقد عرفتَ الطريق.

فكن من الأوابين.

واحفظ قلبك.

وامشِ إلى الله.

حتى إذا انتهى الطريق،

لم تكن أعظم بشارتك أنك نجوت من الدنيا،

بل أنك وصلت إلى باب الخلود...

بقلبٍ منيب.